أمثلة من الترجمة

Ulla Lenze
Die endlose Stadt
Roman

Frankfurter Verlagsanstalt, Frankfurt 2015
ISBN 978-3-627-00210-7

صفحات 5-14 & 55-61

أولا لنتسه
المدينة التي ليس لها آخِر
رواية

ترجمة د.هالة غيم

© 2015 Litrix.de

1. إسطنبول

هناك بالتأكيد دروب عدة.

هناك شخص يتقدم من خلال ضوء شمس المغيب في اتجاهها. يتحرك دون عجالة، فيضفي على وقوفها في مكانها معنى الانتظار. تبتسم رغماً عنها. تُضيّق عينيها في مواجهة أشعة الشمس إلى أن يتوقف أمامها، فيقع ظله عليها.

إنه الشخص الذي تدين له بالشكر على الأشهر الستة الماضية. بالأمس تصافحا، وها هما اليوم بالكاد يلحظ أحدهما وجود الآخر، لا أثناء تواجدهما على العبّارة ولا في قصر" توبكابي" ولا في متحف الفن الحديث. كان جزءًا من حاشيةٍ تتمحور حول وزير الخارجية الألمانى، تحيط بها مجموعة من الحراس الشخصيين. كلهم يرتدون البولو شيرت بألوان هادئة بريئة فوق بنطلوناتِ بدلاتٍ داكنة وجادة.

تشعر بشَدَةٍ تعتري جسدها.

تقول "هالو" في استرخاء.

فيقول "هالو" في مرح.

ثم إذا بهما يترددان—من المفترض أن يعرف كل منهما اسم الآخر. لا يجوز السؤال مرة أخرى عن الاسم. "ألا تود الذهاب لزيارة جامع السلطان أيوب؟" تقول ذلك مشيرة إلى المجموعة التي تنبض بالحركة على العبارة، مجموعة الفنانين والمعنيين بالثقافة الألمان والأتراك الذين يبلغ عددهم الثلاثين. "لا، لا أرغب في الاستماع إلى شرحٍ آخرَ اليوم." ثم أردف سائلا إياها: "و أنتِ؟"

"أنا أيضًا لا أشعر برغبة في ذلك".

"هل لديكِ خطط بديلة؟"

"سأتجول على سجيتي."

لا تجرؤ أن تقول "بمفردي." ترفع عوضًا عن ذلك نظارة الشمس عن وجهها. يتلاشى الحذر الذي شاب ابتسامته، التي أخذت تلتف حولها بحميمية أكثر.

هل من حُجة تخلّص بها نفسها منه؟

يقول: "لدي اقتراح" بينما يضع يده على كتفها. تلتفت وتتفقد معه البلدة الصغيرة من حولهما: بيوت بألوان پاستيلية على المرتفع. مآذن جامع. تتابع بعينيها يده الممدودة؛ إنها خالية من خاتم الزواج. أصبحت مؤخرًا تهتم بذلك، حتى عند الرجال الذين لا يثيرون اهتمامها.

"من أعلى القمة يُتاح النظر حتى إسطنبول. ما رأيكِ في أن ننجز هذه المهمة سويًّة؟" تتبادر إلى ذهنها عند سماع عبارة "ننجز المهمة" أمور مثل إصلاحات متعلقة بالمعاشات أو المراكز الأولى في دوري كرة القدم، ولكن يصعب عليها ربطها بالتنزه.

ترتفع يده عن كتفها، من الواضح أنه لم يلحظ ترددها، إذ ها هو بالفعل يسير في اتجاه الهدف. تقودهما خطاهما عبر مرج أخضر خالٍ من البشر وموحش نوعًا ما. يتبادلان ما لديهما من معلومات عن أيوب: رابع أهم وجهة للحج في العالم الإسلامي، مكان مختبيء على نحو مُستغرَب عند نهاية القرن الذهبي. لا تتضمن كتيبات الإرشاد السياحي التي قرآها توصيات أخرى فيما عدا زيارة المسجد والمنظر من الهضبة. ها هما يسيران بتؤدة، لم تتوقعها قطعًا، ليس بهذا الايقاع البطيء الذي يبدو كأنه يتطلب عند كل خطوة جديدة قراراً بشأنها (هذا إذن هو ما يسميه إنجاز المهمة).

كل محاولة من جانبها لزيادة السرعة تجعلها تتقدمه بمقدار متر، دون أن يُبدي أي استعداد للحاق بها. تضع يدها خلف عنقها، تلتفت فجأة، وترسم على وجهها ابتسامة ساخرة. يرفع حاجبيه متسائلًا، فتتوقف هي عن الابتسام.

تراودها صوَر مساء الأمس: بُقع الضوء الواقعة على الأرضية الخشبية المُلمّعة في مقر القنصلية العامة الألمانية، قاعة الاحتفالات، هفيف روائح العطور في الهواء الذي يلفح الوجه تارة هنا وتارة هناك كالثلج المتناثر. أزياء مُحْكمة على الأجساد، هيئات محددة المعالم. تسريحات شعر مرفوعة ومصففة بمثبّت الشعر. أشكال وأشكال." هذا كله غير مناسب بالمرة، لا يتماشى مع . . ." هكذا شرعت تعترض متنهدة في محاولة منها لإشعال الرفض في نفوس مَن جلسوا على يمينها ويسارها ، "هؤلاء لا يفقهون شيئا عن الفن أو عنّا، هذه الاحتفالية برمتها لا علاقة لها بنا، بل هي مجرد . . ."—"التزمي الصمت يا هولّه من فضلك"—". . . شكليات، صورة يريدون ترسيخها لدى الرأي العام."

تمت بعد ذلك دعوة الرجل الذي عليها الآن أن تسير الهوينى معه ليُلقي كلمته على الحضور: كم تدين المؤسسة له، لشخصه، عضو مجلس إدارة مجموعة شركات بناء أو بنوك، لم تعد

تتذكر. كانت قد تسللت إلى الخارج لتتصل بجلال. كان جلال يقف عند برج "غالاتا" وقال لها إنه يشعر بالنشوة لمجرد سماعه صوتها عبر الهاتف:

"It is big like Galata Tower, baby!" (إنه منتصب مثل برج غالاتا يا فتاتي!)

"يبدو كالجليد" هكذا قال رجل مجموعة الشركات أو البنوك وهو يشير إلى المنحدر. ردت قائلة: "فعلًا." إنها مقابر عثمانية قديمة. تعلم أنه يعرف ذلك. تُرى ماذا يبغى من صُحبتها. هل جذبت انتباهه عندما تم تقديم الفنانين وقراءة أهم محطات أعمالهم؟ فانتظر الفرصة أثناء رحلة اليوم لينفرد بها. غير محتمل. لا بدّ أن ثمة شيء آخر جذب انتباهه، عندما قفزت هي في عجالة من المركب إلى البر. لا بد أنه تعجب لتصرفها ذاك، بل لربما أزعجه.

هذا هو أهم ما يثير الاهتمام بشخصها. ليست دراساتها أو معارضها أو سنة ميلادها. ولكن انصرافها المفاجيء. لقد قال لها جلال إنه يريد أن يلتهم وحدتها:

"I want to eat your loneliness." بعد أن عبّرت له عنها بقولها:

"I am lonely most of the time." (أنا وحيدة معظم الوقت.)

يمر بمحاذاتهما فتى يحمل على كتفه زجاجة تحوي عشرين لترًا من المياه، ويتجاوزهما. يسيران بدرجة من البطء، وكأنهما يراعيان حال حديثهما المتثاقل، لكي لا تتقطع أوصاله. يشرع في حديث عن حركة المرور في برلين وهانوفر؛ من الواضح أنه يبحث عن مواضيع عامة غير حساسة. تقول: "أنا أتنقل بالدراجة." "ألا يشكل ذلك مخاطرة في مدينة مثل برلين؟" تومىء برأسها. بِودّها أن تسأله عن طبيعة عمله. ولكن أي أسئلة ستطرحها ستكشف له بالضرورة أن لا دراية لها بأناس من نوعيته، وأنها في الوقت نفسه لا تثق بهم. لا يوجد حتى موضوع حديث مشترك بينهما، بل مجرد محاولة متعِبة بحثًا عنه.

يسيران أمام دكان يعرض أغطية الرأس الإسلامية، وبعدها أمام مخبز تكتظ شبابيكه من أسفلها إلى أعلاها بأرغفة الخبز المستديرة. يمران بعد ذلك بمحاذاة دكاكين تعرض قطع الإسفنج والصابون وشتى أنواع الشاي والأعشاب غير المعبأة. تودع نظارتها الشمسية في حقيبتها.

يسألها "هل لديك مطاعم محببة في برلين؟"
"هل تريد أن تدعوني للطعام؟"

تبدر منه ضحكة خافتة ، ولكنه لا يتمكن من الإجابة. يستعرض أسماء بعض المطاعم، وكلها من النوعية الغالية، لكنها تهز رأسها مرة بعد الأخرى نافية، على الرغم من أنها تعرف بعضها.

"لا تنسَ أنني فقيرة. وأن ذلك عملياً هو أساس تعارفنا." يبتسم من جديد، و إن تبين لها تراجعٌ ما في هذه الإبتسامة. من الواضح أن أسلوبها المباشر لا يروق له ؛ وهي تتفهم ذلك، وكأن عليه الاعتذار لما هو عليه ، وبالفعل عليه أن يفعل ذلك. تتكرر المحال، ما زالا يجولان في حي الصابون والإسفنج والأعشاب. ثمة امرأة محجبة تُنزل بنطال ابنها الصغير ثم تحمله ليقضي حاجته فوق شجيرة.

تركز عينيها على المعروضات وتقترب منها—تلحظ في ارتياح أن مرافقها يتبعها—تتحسس السطح اليابس لقالب صابون رمادي الخضرة، ثم تتشمم رائحته. "هذا صابون مصنّع من زيت الزيتون في مدينة حلب،" هكذا تشرح بنبرة الخبير،" سآخذ منه قطعتين على الفور." يدخلان دكانًا مكسوًا بالخشب الداكن، عابقًا بروائح منسية، روائح التبن وصمغ الراتنج، مواسم الصيف الجافة و الصيدليات؛ الزكائب مملوءة بالبهارات والأعشاب. "مرحبًا،" تبدُر عن كهل انحناءة طفيفة لتحيتهما، صُفَت خلفه دوارق زجاجية بداخلها براعم ورود جافة يُحضّر منها الشاي. يتأمل مرافقها صندوقًا قديمًا مصنّعًا من خشب المهاجوني. فتقول: "جميل المكان هنا. أليس كذلك؟"

يرد مؤكدًا: "بالفعل، بل هو رائع."

"مثل هذه الدكاكين كادت تختفي من وسط المدينة في إسطنبول. هل تعرف ذلك؟" هكذا تسمع هولَه صوتها يتحدث: "ستجد عوضًا عنها الشركات العملاقة المتعددة الجنسيات التي ترمي بشباك فروعها حول العالم كله. دوغلاس، وبودي شوب، وستاربكس، وH&M، ونورْدْ سي. يوجد بالفعل مطعم نورد سي في شارع الاستقلال. أصبحت كل أماكن العالم تتشابه وفي كل بقعة منه تتكرر الأشياء ذاتها."

ان ما تقوله ليس بجديد على أحد. تسعل و تود من خلال سعالها أن تعوقه عن الاجابة. عندما تنتهي من نوبة السعال المصطنعة و تحتسي كوب الماء الذي قدمه لها الرجل العجوز، يسألها هو للاطمئنان على حالها: "أحسن؟ " جلال أيضًا يُبدي إهتمامًا بحالها. هكذا تعرفت عليه أثناء تجولها في الأزقة أثناء المساء الأول في إسطنبول، حين توقفت عند كشك الوجبات السريعة الذي يملكه والذي كان على وشك أن يغلقه. شعرت آنذاك بالجوع. تبين هو ذلك على الرغم من وقوفها في سكون، و هي تتأمل خلسة أجمل رجل تركي في العالم.

طهى لها السباغتّي بصوص بِسْتو منزلي الصنع مُفعم بالزيت، بعد أن أخبرته:

"I'm vegetarian, you know." (ليكن بعلمك أني نباتية.) جلس معها إلى المائدة المستديرة الصغيرة. أُلصِقت على مربعات البلاط على الجدران حولهما ورقات عليها صور فوتوغرافية لأطباق دونَر دجاج وهوت دوج وبيتزا ومانتي ورافيولي تركي. أخذ كل منهما ينظر إلى الآخر، إذ لم تُتِح قدراته باللغة الانجليزية إمكانية المحادثة بينهما. أخذ يمسح في شيء من الخجل على شعره الأسود الطويل ليزيحه إلى الخلف. حين سألها عن رقم التليفون الخاص بها، استطاعت أن تتخلص من المأزق بذكر الحقيقة، وهي أنها لم تكن قد اقتنت بعد شريحة خط محمول للاستخدام المحلي. وقامت عند كتابة عنوان البريد الإلكتروني الخاص بها بإضافة حرف خطأ عمداً.

تشعر بشيء من الإجهاد من جراء السعال المفتعل، تأخذ من البائع قطعتي الصابون اللتين لفهما في ورق حريري جميل. ينحني لها الرجل من جديد. "شرقي للغاية، أليس كذلك؟" هكذا تتهكم، و إن لم يدرك مرافقها الذي أومأ فوراً برأسه أنها لا تعني ذلك حقًا بحديثها عن المشرق والمغرب، فأخذ يتغنى بإسطنبول كجسر بين الشرق والغرب. إنها مشتبكة منذ أشهُر مع فنانين آخرين في جدل حول إشكالية الهيام بالمشرق وكيفية التعامل معها ومعالجتها على المستوى الفني. هل عليهم أن يراعوا هذه التصورات الجاهزة عن المدينة ليتمكنوا من تجاوزها، أم أن يعتمدوا كُليًا على نظرتهم الثاقبة غير المشوبة بغرض مسبق. هل مهمتهم أن يقدموا حلولًا وسطى أم فنًا؟ هذا هو السؤال الجوهري الناقد للذات.

ثم هناك العلاقة التي بدأتها مع جلال. كما يفعل ألماني متقاعد مع فتاة تايلاندية. (في هذه الحال تُعَد هي الرجل المتقاعد.) إنها تؤلف هذه النكات بنفسها، لتحول دون أن يؤلفها آخرون. وها هو مرافقها يتحدث متجاهلًا هذه الأمور كلها، وهذا في حد ذاته أمر إشكالي. يدَعي أن التمازج قد نجح بدرجة تجعل المرء لا يدرى غالبًا إن كان في أوروبا أو آسيا.و لعل أكبر دليل على ذلك هو وجود "أيوب"، المرتبط بالتراث الشعبي، على الضفة الأوروبية، بينما تبدو جزر الأمراء التي تقع في آسيا وكأنها قطعة من إقليم "مِكلنِبورغ" الألماني في القرن الماضي، بما فيها—الجزيرة—من ڤيللات خشبية بيضاء جميلة وعربات حنطور تجرها الجياد.

تتنهد قائلة: "المشرق والمغرب. ذات يوم سيتجاوز الزمن هذه المصطلحات مثلما طوى كلمتي "زنجي" و"آنسة." فيجيب بعد فترة قائلًا: "المشرق والمغرب تسميات جغرافية، لا يعتريها أي خطأ."

"وكيف لهما أن يتمازجا؟ أجزاء الأرض لا تتمازج ولا تنصهر ببعضها. أنت تستخدم هذه المصطلحات كتسميات للحضارات، وذلك ينُم في رأيي—مع رجاء المعذرة—عن تبني حق الهيمنة الثقافية."

تتسبب كلماتها في فترة صمت أخرى. تترقب تفاعلًا شبيهًا بمباراة تنس الطاولة، ستحرِز فيها الفوز دون جهد يذكر. ولكن ها هو يؤشر بيديه مفسحًا الطريق لكي تتقدمه. تنظر إليه مجروحة، دون ان تنطق ببنت شفة، فيعلِّق: "لا نريد اليوم أن نستمع لأي شرح آخر. لقد اتفقنا على ذلك."

تشعر بارتباك، تتفقد في حرصٍ المكان حولها—ملاءات الفراش المشدودة لتجف بتثبيتها بين الشبابيك، القطة التي تختفي عند الناصية—هو أيضًا يسكت عن الكلام، وإن كان ينظر إليها من آنٍ لآخر. لا تستعيد هدوءها إلا عندما يبعد نظره عنها. ها هي تضرب الأرض بقدميها خلفه لتصعد المرتفع الذي تقع عليه المقابر العثمانية؛ إذ يقوم الآن بدور القائد الرجل وبسرعة مفاجئة، مع التفاتة وحيدة ليتأكد من موقعها. بدأت الظلمة تزحف على المكان. يسيران فوق ألواح المقابر المكسرة، عبر غابة من الشواهد الرخامية فاتحة اللون والطويلة بقامة رجل التي مالت عبر قرون من الزمن لتشكل نموذجاً يعبّر عن التحاب والتراجع في آن واحد. ثمة تواريخ وأسماء بالحروف العربية. حفيف أوراق عنب البري وأدغالٍ ما في ضوء المغيب، كأنها سوائل مسكوبة على شواهد المقابر والدروب.

يصعد درجًا حجريًا ضيقًا متآكلًا، يلتفت وينظر إليها، لا يقول شيئًا، يستمر في السير، ثم يقول "لا بد من وجود درب آخر غير هذا."

"هناك بالتأكيد دروب عدة. هناك أيضًا التلفريك."

فيرد قائلًا: "ولكنك كنت تودين التجول."

"بالفعل."

ثم يحل الصمت من جديد.

إنه صمت مختلف عن ذاك الذي ساد في البداية، الذي نمّ عن البحث والتلمس. تشعر بالحرج بسبب شرحها في دكان الصابون. تود أن تقول شيئًا يبرره، ولكن وضع جسده المعني حصريًا بمهمة الصعود لا يتيح لها فرصة الحديث عن ذلك.

يتسلقان بعناء فوق زرع يابس متشابك. يلتفت ليمد يده إليها. جلده ناعم للغاية. يأخذ الدرجات التالية في حماسة، تظهر قدماه من حذاء الموكاسان الأزرق الداكن ،الذي انتعله دون جوارب، وقد لوّحتهما الشمس. تترك الدرج لتتحرك في هدوء من خلال أدغال الشجر. تشعر بلزوجة شِباك العنكبوت تدغدغ وجهها. هل تريده أن يفتقدها، ليبحث عنها؟ يا لها من فكرة بلهاء. تعود إلى الدرب خلفه. يستمر هو في الصعود دون أن يلحظ شيئاً. تسرع خطاها وتتحرك خلفه، لاهثة.

ينتظرها عند قمة الهضبة أمام شاهدةِ مدفنٍ انقلبت على الأرض، فاستندت مُنهكَّة إلى حائط تركت عوامل التعرية آثارها عليه. ينظر بعيدًا. تغطس إسطنبول في آخر أضواء النهار. تظهر نجوم في السماء الداكنة الزرقة. يبتسم لها، ولكنها ابتسامة لا تدل سوى على الصبر، كتلك التي تبدُر إزاء مسار غير مرضٍ لاجتماع مجلسٍ رقابة أو في مواجهة شركاءِ مفاوضات غير متجاوبين .

"هل أنتِ على ما يرام؟"

تجيب هي لاهثة "نعم."

"ألا تمارسين الرياضة؟"

"بلى، وأنت؟"

"لا، فيما عدا الرماية بالسلاح."

يبتسم وكأنه مسرور بتعبير وجهها، الذي ارتسمت عليه الريبة والتحفظ.

أما هي فيخطر على بالها جلال، طقطقته، بدون بنادق رياضية. ما الذي يجعلها تدخل في منافسة مع هذا الشخص الغريب عنها؟ تتوقف المنافسة لوهلة حين يسيران جنبًا إلى جانب على مدقٍ ضيق دامس الظلام ولا يتسع لمرور اثنين، يضيئه هو بواسطة كشاف هاتفه المحمول. تتلامس ذراعاهما للحظة قصيرة، ثم مرة أخرى، وكأنها جرعة لقاح منشطة. يسيطر الإحساس باللمسة الدافئة على وعيها أثناء الهبوط، الذي لا يشكل صعوبة مقارنة بالصعود. يصلان إلى الميناء في الميعاد المحدد. يلتحق كل منهما من جديد بمجموعته، بعد أن يعطيها بطاقة التعريف الشخصية الخاصة به. اسمه د. كريستوف ڤانكا.

5. مومباي

عشوائيات خمس نجوم

رقدت تيريزا ليلًا في الضوء المنبعث من الشقق المقابلة. فتحت عينيها قبل أن تغفو، لتتأكد إن كانت المصابيح ما زالت مضاءة، أم أن كل الجيران قد أخذوا فجأة وجودها بينهم بعين الاعتبار. فملكوت الأحلام قد اقترب جدًا، بما فيه من معجزات.

نقبت تيريزا أثناء النهار في ما خلّفته هولّه من أغراض، باحثة عن أي قطعة قماش، لتثبتها أمام شباك غرفة النوم لحجب الضوء. كانت هولَه قد جمعت كل متعلقاتها الشخصية في ثلاثة صناديق. لم تسمح تيريزا لنفسها في البداية سوى أن تبحث في الطبقة العُليا منها، ثم إذا بيدها تغوص إلى الأعماق. كلها من سقط المتاع لا أكثر؛ وإن كان من الواضح أن هولَه لم تقدر على فراقها ولم تدرك نهايتها: أنبوب كريم طارد للحشرات شبه فارغ، عيدان بخور مكسرة تحولت إلى فتات، أساتِك شعر ممطوطة من كثرة الاستخدام (اشتبكت بأحدها شعرة طويلة داكنة)، أقلام حبر جاف معضوضة، وتذاكر مواصلات، مناديل ورقية مطبوع عليها أسماء مطاعم، وشريط به قطع لبان نيكوتين عُلِكت ثم أعيد لصقها في علبتها، إلى جانب صدَفَة، ومرهم "تايجر" للصداع.

قالت تيريزا في نفسها إنها قد تجد ساريًا أو ربما وشاحًا قطنيًا عريضًا. ولكن هولَه لم تمتلك أي شيء هندي المنشأ، كما أن مقاسها (34 / 36) وضعها في مرتبة مغايرة سامية. يبدو أنها تهتم بجودة الخامة والتصنيع، بعيدًا عن المنتجات الشعبية المتداولة. إذ حملت ملابسها أسماء مصممي الأزياء في باريس ونيويورك. أما الملابس الداخلية فكانت منمنمة ومصنّعة من الدانتيل بلون عاجي أو أسود. لم يزل بعض ملابسها منشورًا على حامل الغسيل بإهمال؛ فقامت تيريزا التي أدهشها ذلك بفرد الأكمام المكوَّرة داخل البلوزات الناعمة الشفافة.

أما الآتيليه فلم تطأه قدما تيريزا. كانت تمر أمامه في طريقها إلى المطبخ، فتتوقف أحيانا لوهلة قصيرة وكأنها أمام إنسان حديثه غير شيق، وإن يكن تجاهله تمامًا غير ممكن، فتضغط جبينها أحيانًا على لوح الزجاج المبرغل في محاولة للتعرف على شيء ما خلفه.

عثرت في صندوق على صورة فوتوغرافية، فأخذت تتساءل عما تراه، وعما إذا كانت الصورة تمثل انعكاسًا لشخص هولَه. حدقت في هؤلاء الأغراب، وإن لم يكونوا غرباء، ما دامت هولَه قد احتفظت بصورتهم. ظنت تيريزا أنها قد توصلت من خلال الصورة إلى شيء ما يعينها على فهم شخصية هولَه، ولكنها لم تتمكن من تحديد ماهيته.

ظهرت في الصورة عائلة جنوبية الملامح، تقف على مرعى جبلي؛ وقد تشابكت أذرع أفرادها الذين نبضوا بالحيوية والنضارة، وكأنهم توقفوا لتوِّهم ليرتاحوا من رقصة ما. وهذه الضحكة. ارتسمت الضحكة ذاتها على وجوه الجميع: الأب النحيف قصير القامة في بدلة أكبر منه بكثير، والأم في تنورة واسعة وطويلة تمتد إلى كاحليها، ارتدت معها صديريًا مشغولًا برسوم الورد ووشاحَ رأسٍ ريفي ربطته أسفل ذقنها، أما الفتاة الشابة فارتدت الجينز المشقوق وفقًا للموضة، وظهرعلى وجهها مكياج احتفالي، بينما برز الابن في سترة رياضية من النايلون الحريري لونها فيروزي، فأضفت بدورها مسحة احتفالية على الصورة. بإمكان الابن أن يرتدي ما بدا له بوجهه البهي وقامته الرياضية. شكلت العائلة وحدة، وكأن أفرادها كانوا دومًا في حضن الطبيعة. كان كل منهم بشكل ما جزءًا من الكل، على نحوٍ جعل تيريزا تفهم سبب احتفاظ هولَه بالصورة. تُرى هل قامت هي بالتقاط الصورة؟ إنها عادة لا تصور أشخاصًا. إذْ لم تظهر في الصور التي وجدتها تيريزا في قعر الصندوق سوى مناظر مدن بدت للوهلة الأولى خالية من البشر؛ نفس الصور التي كانت تُتداول عمليًا عبر الشبكة عن طهران وإسطنبول وأوديسا. ولكن عند التمعن في الصور اكتشفت تيريزا أشخاصًا، أرباع أشخاص. أطراف أجساد، كوعًا، ذراعًا، رأسًا من الخلف بداخل سيارة تاكسي منطلقة؛ أو على مسافة كبيرة تجعلها تمتزج مع ما حولها من مناظر. ثمة هيئتان تتحركان بمحاذاة جدار على طرف أرض قفرٍ مليئة بالقمامة. بدا كل شيء فحميًا، رماديًا، أسودَ وفضيًا، حيث انعكست السماء في تجمعات المياه الراكدة، أو بدت داكنة حقًا، وقد رمت بغطائها على المكان، وكأنها تود أن تطفىء نارًا نشبت فيه. إحساس بالقيامة وبآخر من نجوا. شكلت هذه الصور من مومباي نقيضًا واضحًا للصورة العائلية على المرعى الجبلي الأخضر.

كُرست بعض الصور للقمامة. حيث لم تُوثَق القمامة فحسب، بل تم تصويرها كعنصر خلَاق. صور مقبضة متقوقعة على ذاتها. شوارع وكتل سكنية مصورة وكأنها مخلوقة من القمامة، وكأن القمامة هي التي شكلتها؛ قمامة تتسلق الجدران؛ تتعفن في مستنقعات المجاري.

وفعليًا كانت القمامة في هذه المدينة عنصرًا أساسيًا، كالتراب والهواء والماء. لم يتم التعايش معها فحسب، بل كُثِّرت وبُذِرت. كانت محبوبة، تثير في النفوس إحساسًا بنشوة الفوز. إنها تمثل توثيقًا للتقدم. فمواد التغليف تدل على القوة الشرائية ومتعة الاستهلاك.
لم يبدأ اجتياح القمامة للأماكن العامة إلا مع تحرير السوق الهندية في التسعينات، حين دخلت سلع استهلاكية جديدة إلى البلاد ومعها عادات استهلاكية. كل ما يستخدم يُلقى به على الارض. إنها مدينة مقشّرة، تلوِّح وتصدر حفيفًا، مليئة ببؤر القلاقل وبالهامسين، بأكياس شرائح البطاطا الجاهزة وعلب الكوكاكولا المنبعجة، وعبوات السجائر، وورق التغليف. تكوَّن منها نسيج، ونشأت كتابة وأرشيف: قمامة في كل مراحلها، متربة، قذرة، عفنة، عطنة، جديدة. ترى من

خلالها تراكمات الزمن، والآخرين، آثارهم. كل خطوة يخطوها المرء تقوده إلى جماعة الذوات الأغراب الكُثر، الذين يعلنون عاداتهم الاستهلاكية من خلال قمامتهم. كل منهم يُظهِر للآخر ما يأكله، وما يشربه، مجهولَ الهوية، وخانق في الوقت ذاته، لشدة قربه وخصوصيته. دفعت الحرارة الرطبة بروائح العفن والعطن وشتى أنواع المخلفات إلى داخل الأنف. كما أدت إلى التعرق والتناضح والتمازج على نحو لا فرار منه. وإذا حصل هذا مرة ووعى المرء ذلك، تصحبُه هذه المدينة حيثما ذهب؛ حتى آخر نقطة في العالم. لم تعُد مومباي مجرد مدينة، بل صارت استعارة مجازية.

يبدو أن هولِّه قد سافرت فجأة. إذْ حوت الثلاجة الكهربائية عبوات بها بقايا ضئيلة؛ جرعة حليب، فتات جبن، ومرطبان نوتِلّا يكاد يكون فارغًا. هل كانت هذه هدايا لتيريزا ؟ أم كانت هولَه، وهذا هو أغلب الظن، من الناس الذين يتقاعصون عن مهمة التخلص من الأشياء، فيتركون—كمبرر لذلك—بقايا ضئيلة في العبوات؟ هل هي من الاشخاص الذين يتراجعون أمام كل ما هو نهائي؟ فيتجنبون القرارات الحاسمة ؟ أم كان التراكم في الشوارع يمتد لاشعوريًا إلى داخل ثلاجتها، مُعبِرًا عن عدم قدرتها على انتهاج سلوك مخالف لما حولها.

تخلصت تيريزا من كل شيء في برميل في الفناء، لينقض عليه جوعى الشوارع من ثم لنبش محتوياته. ما أسهل التخلص من القمامة في هذا المكان. انتبهت إلى ذلك الخاطر، فحكت ذراعها، ثم واصلت تشممها لمحتويات المكان.

تصفحت مجموعة عشوائية من تذاكر سفر (برلين – هانوفر - برلين) وإيصالات سيارات أجرة، إلى جانب فواتير، ومناديل ورقية، لاحظت أخيرًا ما كتب على ظهرها.

" تصبحين أنت المدينةَ، بمجرد دخولك إياها. يتغير جسدك، لأن زحف هذه المدينة لا يتوقف. لا يجوز أن يتنفس المرء الهواء إلا بعد أن يصبحَ المدينة. الخوف من فقدان الذات، والرغبة في الذوبان.

فجأة تدركين، تدركين بطريقة مختلفة عن ذي قبل. الجسد يعرف، حتى الأحشاء، المعرفة تتسلل إلى الأنفَاس ؛ أقول هذه هي المعرفة.

السكون في العشوائيات هو أيضًا سكونُ سكوتٍ عن الكلام. تعرف كل فكرة أنها لا تريد أن تنشغل إلا بذاتها، حتى لا تضطر إلى التفكير بالمكان، بلاعقلانيته.
لا يدرى المرء في النهاية ما دهاه في هذه المدينة. مرتبكًا بين ولائه للمعايير الغربية التي لا يود التخلي عنها، وبين عدم ثقته بها، لسهولة الحصول عليها.
أيهما اصلح؟
النجاة في هذه المدينة مسألة صُدفة."

أعجبها النص. تساءلت عما إن كانت أماكن مثل مومباي، حيث النجاة محض صُدفة، لا تكشف أيضًا حدود الفن. هل كان الفن ينقد المجتمع؟ أم أنه لم يعد فنًا، بل رسالة؟ هل كان الفن مكتفيًا بذاته؟ هل أصبح تهكمًا؟

تعرف تيريزا الأمر من خلال عملها، أن كثيرًا من الأمور لا تبقى على ما كانت عليه إلا في عزلتها وعدم إعلانها؛ ففي اللحظة التى توجَه إليها عدسة الكاميرا، أو يتم صبها في أعراف سرد الريبورتاج، يتم شحنها بمعاني الجمهور ومعاييره وأحكامه. فيكون المرء، وعلى نحوٍ عرَضي قد قضى على ما أراد الإعلان عنه بإعلانه عنه. أيكون التكتم على اكتشاف ما شرطًا للحفاظ عليه ؟ إن الغياب عن الكل، جعل الاكتشاف ممكنًا وكان لابد من الحفاظ على هذا الغياب لصون الاكتشاف. يا له من تناقض! أن يريد المرء الإعلان عن أمر ما، ولكنه محكوم بأخطاء الفهم،أي بعدم دقة المعايير المتداولة، التي تُفسِد ما يود الإعلان عنه.

تذكرت لحظات عملها كمراسلة صحفية، والتي لم يعرف أحد شيئا عنها قط. ضوء، عيون، قطار تهدر خلاله الريح المحملة بحرارة الشمس. كان هناك أطفال ثلاثة. خمس وست وتسع سنوات. أخوة. في طريقهم إلى محطة "بوابة الكنيسة" حيث يقومون بتلميع الأحذية. لكنهم أنفسهم كانوا حفاة. رفعوا وشاح تيريزا عن الأرض، حين انزلق من على المقعد بفعل اهتزازات القطار. كان الأطفال يعرفون كل شيء. كانو يعرفون ما لا يمكننا أبدًا أن نعرفه (وجهَّت فجأة حديثها إلى هولَه)، ولدقائق سمحوا لي بالتواجد معهم وعندهم. رفعوا الوشاح ليضعوه على المقعد، وودعوني. أدركت أنهم سيظلون ملازمين لي منذ تلك اللحظة. إنهم دومًا موجودون، لا أملك أن أنساهم؛ لن يغادروني إلا إذا حكيت عنهم.